انعکاس کاشف

رسالة إلى القارئ

أيها القارئ الذي وصل إلى هذه العتبة،

اعلم أنّ ما بين يديك ليس روايةً تبحث عن نهايات، ولا حكاية تُراد منها العِظة، بل هو اقترابٌ من منطقة لا يمشي إليها الإنسان إلا حين تشتد عليه وحدته، وتُثقل روحه بأسئلة لم يُجب عنها أحد. إنّ هذه الصفحات تُفتح لك لا لكي تهرب من واقعك، بل لكي تعود إليه بعيون أخرى؛ عيونٍ تعرف أن الظل لا يُطارد الإنسان من الخارج، بل ينبثق من أعماقه .

ستسير هنا مع فكرةٍ لا تُقاس بالزمن، فكرة تقول إنّ الإنسان لا يكتشف ذاته في لحظات القوة، بل في اللحظة التي يرى فيها انهياره وهو يحدث ببطء، ويرى الحقيقة وهي تُسقِطه من دون رحمة، ثم يدرك أنّ السقوط لم يكن عقوبة، بل دعوة للمعرفة .

في هذا العمل لن تواجه خطيئةً فردية، بل ستواجه طبيعة كاملة. ستتعلم أنّ الذنب ليس حدثًا نندم عليه، بل بنيةٌ تتكون في الداخل، تنمو مع كل خوف مؤجل، ومع كل فكرة لم نملك الشجاعة لنقولها لأنفسنا. وهنا، في هذا العالم، لن تجد أي يقين، ولن يُقال لك ما هو الصواب وما هو الخطأ، لأنّ الإنسان الحقيقي أعمق من هذه الثنائيات، وأكثر تعقيدًا من أن يُختزل في حكمٍ أخلاقي أو خلاصٍ سريع.

اقرأ هذه الرواية وأنت مستعد لأن ترى شيئًا من نفسك، ولو لم تكن ترغب بذلك. اقرأ وأنت تعرف أنّ الحكايات العظيمة لا تُطمئننا، بل تفتح فينا نافذة نحو ما نحاول تجاهله، وتذكّرنا بأننا نعيش مع ذاتٍ لم نفهمها بعد، ومع جرحٍ ورثناه دون أن نختاره، ولكنه صار جزءًا من هويتنا .

وإن انتهيت من هذه الرحلة ووجدت شيئًا يتحرك في داخلك—سؤالًا، خوفًا، ارتعاشةً خفيفة، أو يقظة مفاجئة—فلا تُغلقه... لأنّ اللحظة التي يبدأ فيها الإنسان بالأسئلة، هي اللحظة التي يبدأ فيها أخيرًا برؤية

نفسه كما هي، لا كما أراد لها الآخرون أن تكون .

وأتركك مع خلاصة ما أدركته في بحثي الطويل عن النفس وظلّها :

«إنّ أعمق ما يواجهه الإنسان ليس خطأه، بل صورته حين يرى أنه هو نفسه الصانع الأكبر لظله.»

الفصل الأوّل: مدينة بخطّ يدٍ مرتجف

لم تكن لندن في منتصف التسعينات تختلف كثيرًا عمّا هي عليه الآن؛ كانت مدينة يثقلها ضباب كثيف يشبه طبقة من الأسرار، وتتحرك شوارعها كأنّها تبتلع خطوات من يمشي فوقها. وبين أولئك المارّين الذين كانوا أشبه بظلال تبحث عن أجسادها، كان تريستان يمضي فيها وكأنه كائن يعيش على حافّة العالم، يختبئ في الزاوية الأكثر ظلمة من المدينة ومن نفسه معًا .كان في الثالثة والثلاثين من عمره، وهو عمر لا يُعد كبيرًا، لكنّه بالنسبة لرجل يحمل قلبًا مُثقلاً بالخوف والندم، كان أشبه بعمر شخص خاض ثلاث حروب وفقد ثلاث مرات ما اعتقد أنّه يملكه. كان يُقيم في شقّة صغيرة داخل بناية قديمة تتآكل جدرانها ويتآكل معها صبر ساكنيها، بينما تصدر درجات سلّمها أصواتًا تشبه تأوّه عجوز لم يعد يحتمل ثقل السنين .داخل الشقّة، لم يكن هناك الكثير ممّا يستحق النظر: سرير غير مرتّب، مكتب صغير تتكدّس فوقه المخطوطات الممزّقة، رفّ خشبي يحمل كتبًا بعناوين لا يجمع بينها شيء، ومرآة قديمة مُعلّقة على الجدار المقابل للنافذة، إطارها متساقط الطلاء وكأنّها بدورها تتهالك من الداخل. تلك المرآة بالذات كانت آخر ما يريد تريستان النظر إليه، فالأوجه بالنسبة له ليست انعكاسًا صادقًا للداخل، بل محاولات بائسة لشرح ما لا يمكن شرحه .استيقظ في ذلك الصباح دون أن يشعر أنّه استيقظ فعلًا. نهض من فراشه كما لو أنّ جسده يجرّ نفسه جراً، وتوجّه إلى المطبخ ليعدّ قهوته السوداء، الشيء الوحيد الذي كان يعتقد أنه قادر على إنقاذ بقايا وعيه. جلس أمام المكتب، ونظر إلى الأوراق التي ملأت المكان كأنّها جثث كلماتٍ لم تولد كاملة. أمسك قلمه، تنفّس بعمق، وكتب جملة واحدة بدت وكأنها خرجت من جرح مفتوح» :أحيانًا... يعاقبنا القدر على فعل الخير «.توقّف بعدها مباشرة، وكأنّ الجملة كشفت ما يحاول إخفاءه. مزّق الورقة ببطء، كما لو أنّ تمزيقها يُخرس

الحقيقة التي لا يريد الاعتراف بها. ارتدى معطفه الطويل وغادر الشقّة نحو المقهى القريب؛ المكان الوحيد الذي منح نفسه فيه لحظة هدوء خلال السنوات الخمس الماضية .كان المقهى يُدعىThe Lantern ، اسم بدا له دائمًا ساخرًا، فذلك المكان لم يحمل أي ضوء سوى ضوء العادة. فتح الباب، معلنًا دخوله بصوت الجرس الصغير، فإذا بأندرو، صاحب المقهى، يرفع رأسه بابتسامته النصف حزينة المعتادة، ابتسامة رجل يعرف أكثر مما يقول .قال أندرو ساخرًا» :ظننت أنّك ستنام حتى نهاية القرن «.جلس تريستان في ركنه المعتاد وردّ بصوت منخفض : »لم أكن نائمًا «.وضع أندرو فنجان القهوة أمامه وقال» :أعرف... أنت فقط تحاول «.ولم يكن بحاجة لأن يحدّد ما الذي يحاول أن يفعله، فالكل يعرف أنّ حياة تريستان ليست سوى سلسلة من المحاولات التي تنطفئ قبل أن تنجح. بعد صمت قصير، سأله أندرو» :هل كتبت شيئًا البارحة؟ «أجاب تريستان دون أن يرفع رأسه» :كتبت... ثم مزّقت كالمعتاد «.ابتسم أندرو بمرارة» :ربما لا تنقذ الكتابة أحدًا... لكنها على الأقل تُبقيك واقفًا «.غادر تريستان المقهى بعد نصف ساعة، وقد شعر بشيء غريب يشبه القلق في صدره. عاد إلى شقّته مسرعًا بلا سبب واضح. دخل، خلع معطفه، ونظر بلا وعي إلى المرآة... وهنا تغيّر شيء لم يتوقّعه .وقف أمامها وحدّق في انعكاسه، فرأى ملامحه المُجهَدة كما يعرفها، ولكنّ شيئًا صغيرًا حدث: رفع رأسه... بينما انعكاسه تأخر لثانية كاملة .تجمّد في مكانه، غير قادر على تصديق ما يرى. لم يكن انعكاسًا بطيئًا أو خدعة بصرية؛ كان تردّدًا. وكأنّ الصورة داخل المرآة تفكّر قبل أن تقلّده .ابتعد خطوة، ثم عاد ينظر ثانية، ليجد كل شيء طبيعيًا. لكنّه شعر بأنّ شيئًا انكسر في داخله، شيء لم يعد يستطيع تجاهله. تلك الليلة لم ينم. ظلّ يكتب ويمزّق ويكتب ويمزّق، وكأنّه يحاول خنق شيء يتكاثر في صدره .وفي الثالثة فجرًا، حين نظر إلى المرآة من جديد ...رأى انعكاسه يبتسم .شفتيه هو لم تتحرّكا، لكن انعكاسه ابتسم بنعومة باردة لا تشبهه على الإطلاق .سقط القلم من يده .واختفت الابتسامة في اللحظة التالية، وكأنّها لم تكن سوى إشارة صغيرة تقول له إنّ شيئًا أكبر بكثير يقترب منه .وظلّ سؤال واحد يرنّ في أعماقه :هل يبدأ الذنب دائمًا من الداخل... قبل أن يظهر في الخارج؟

الفصل الثاني : حين يستيقظ الجرح ويبدأ الكلام

لم يكن صباح لندن في ذلك اليوم يحمل أي وعد بشيء مختلف، فالمدينة التي اعتادها تريستان منذ سنوات طويلة لم تتغير كثيرًا؛ شوارعها ما تزال محاطة بضباب رماديّ يتسلل بين الأبنية كما لو أنّه يبحث عن ماضٍ فقده، وصوت المطر الذي لم يكن قد بدأ بالسقوط بعد كان معلَّقًا في السماء، جاهزًا للنزول في اللحظة التي تقرّر فيها المدينة أن تنطق. أمّا هو، فقد استيقظ كما يستيقظ مريضٌ لم يشفَ بعد، ينهض من سريره متثاقلاً، كأنّ جسده أشبه بكتابٍ ثقيل يحمل بين صفحاته قصصًا لا يريد لأحد أن يقرأها.

جلس طويلاً على حافة السرير، واضعًا يديه فوق وجهه، محاولًا أن يستعيد يقينًا بسيطًا أنّ ما حدث في الليلة الماضية لم يتجاوز حدود الإرهاق، أو ربما كان وهمًا خفيفًا ولد في لحظة ضعف قبل أن ينطفئ. لكنّ عقله كان يرفض هذا التفسير، وكأنّ الحقيقة التي رآها أمام المرآة أمس تحمل من الوضوح ما يجعل المستحيل نفسه يبدو منطقياً. فالانعكاس الذي ابتسم بدونه لم يكن مجرد خطأ عرضيّ أو ضوءًا خادعًا، بل كان شيئًا أقرب إلى اعتراف خفيّ من عالمٍ آخر؛ عالمٍ يعرفه تريستان أكثر مما يعترف به.

نهض ببطء متجهًا نحو المرآة المعلقة على الجدار، تلك المرآة التي تبدأ حدودها بالتآكل منذ أعوام، تاركة حولها هالة قاتمة تُشبه تلك الدوائر التي تتشكّل حول الجروح القديمة حين يبدأ الجلد برفض الالتئام. وقف أمامها طويلاً، ينظر إلى صورته دون أن يرمش، وكأنّه يختبر ما إذا كانت ستخونه مرة أخرى، لكنّ انعكاسه بدا طبيعيًا هذه المرة، مقلدًا حركاته بدقة مملة. ورغم ذلك، لم يشعر تريستان بالراحة، بل أحسّ بأنّ الهدوء الظاهر الذي يعلو سطح الزجاج يخفي خلفه شيئًا أكثر اضطرابًا،

تمامًا كما يخفي البحر الهادئ مقامع الغرق في أعماقه.

تمتم بصوت منخفض" :إن كانت المرآة صادقة... فلماذا تكذب الحياة؟ "لم يكن ينتظر جوابًا، لكنه شعر للحظة أنّ الهواء داخل الغرفة أصبح أكثر ثِقلاً، وكأنّ شيئًا ما يُنصت إليه من حيث لا يرى.

لم يجد معنى للبقاء في شقته، فارتدى معطفه البنيّ الثقيل وخرج، تاركًا خلفه بابًا لم يُغلق تمامًا، كأنّ جزءًا من روحه بقي داخله ينتظر شيئًا غير مكتمل. نزل السلالم بخطوات مترددة، وغادر البناية التي يعرف صوت كلّ حجر فيها، واتجه نحو الشارع حيث يختلط صوت السيارات بوقع الأقدام وبصمت النفوس التي تخبّئ ما لا تستطيع قوله.

كان يريد الوصول إلى المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه منذ خمس سنوات، ليس حبًا بالقهوة ولا ضرورة للروتين، بل لأنّ المقهى كان مكانًا يخفّف عنه ضجيج العالم. كان ملاذًا مؤقتًا، مساحة صغيرة يستطيع أن يختبئ فيها من ذاته الثقيلة، وأن يُقنع نفسه — ولو لساعة واحدة — أنّ الحياة يمكن ألّا تكون سجنًا دائمًا.

عندما وصل، دفع الباب الخشبيّ بيده، فصدر عنه ذلك الرنين المعدنيّ الخفيف الذي يشبه تحيةً يعرفها كلاهما منذ زمن طويل. كان أندرو يقف خلف الطاولة، منهمكًا في إعداد القهوة، ولم يرفع رأسه إلا بعد أن التقطت أذنه صوت الباب .قال بنبرة تحمل شيئًا من المزاح الممزوج بالقلق" :تبدو كما لو أنك قضيت الليلة في معركة خاسرة".

جلس تريستان في ركنه المعتاد، ركنٌ يعرفه كما يعرف جرحه، وقال بصوت مُجهَد : "لم أخض معركة... لكنني لم أهرب من شيء أيضًا ".اقترب أندرو ووضع فنجان القهوة أمامه، ثم اتكأ على الطاولة، وراح ينظر إليه بعينٍ تفحص ما خلف ملامح الوجه لا ما يظهر عليه. لقد كان أندرو من أولئك القادرين على رؤية الأشياء غير المنطوقة، فهو لم يكن مجرد صاحب مقهى، بل كان أشبه برجل يمارس مهنة الإصغاء لكلّ من لا يجد من يُصغي له.

قال أندرو" :أخبرني... ماذا حدث البارحة؟ "تحركت يد تريستان فوق الفنجان، لكنه

لم يشرب. كان يعرف أنّ الكلمات التي سيقولها ستجعل الأمر حقيقيًا أكثر، وسيكون عليه أن يواجه شيئًا لم يعد مجرد فكرة مخيفة. وأخيرًا، قال" :انعكاسي لم يكن يشبهني".

رفع أندرو حاجبيه قليلًا، كأنه يقيّم الجملة ويزن معناها قبل أن ينطق بردّ" .تقصد أنه بدا مختلفًا... أم أنّه فعل شيئًا غريبًا؟ "نظر إليه تريستان طويلًا قبل أن يجيب : "ابتسم... بينما لم تكن وجهي يبتسم".

لم يتفاجأ أندرو كما توقع تريستان، بل تنهد ببطء، وكأنه يسمع شيئًا سبق أن مرّ في ذاكرته .قال" :هناك لحظات... يتوقف فيها الوعي عن حماية صاحبه، وتظهر الأشياء التي نخفيها منذ زمن. المرآة ليست زجاجًا عاكسًا فقط، بل هي باب ضيق يُطِلّ منه كل ما كتمناه، وكل ما رفضنا الاعتراف به ".هزّ تريستان رأسه، كأنه يحاول طرد فكرة بدأت بالتشكل بشكل واضح" :تريدني أن أصدق أنّ ما رأيته كان حقيقيًا؟ أن انعكاسي يتحرك بإرادته؟"

جاب أندرو" :لا أقول إنه يتحرك بإرادته... أقول إنه يتحرك بإرادتك أنت، تلك الإرادة التي لا تعترف بها، والتي تخرج في اللحظة التي تظن فيها أنك أصبحت أكثر أمانًا ". شعر تريستان بأنّ قلبه يهبط ببطء داخل صدره، كما لو أنّ الكلمات ثقيلة بما يكفي لتسحب روحه معها.

حين غادر المقهى، كان المطر قد بدأ يتساقط، خفيفًا في البداية ثم أثقل قليلًا، يطرق الرصيف والأبواب والسيارات، ويملأ الجوّ برائحة الأرض المبللة التي تمنح المدن صوتًا يشبه البكاء الخافت. سار تريستان بلا وجهة واضحة، تاركًا يديه داخل جيبي معطفه، ورأسه منحنيًا قليلاً، كأنه يحتمي من شيء لا علاقة للمطر به .وبينما كان يسير بمحاذاة واجهة متجر زجاجيّ، لفت انتباهه انعكاس جسده على الزجاج اللامع، فاقترب خطوة ليتأكد من أنّه يرى نفسه فقط، لا شيء آخر. لكنّ الانعكاس بدا مشدودًا بطريقة أقل مللاً، وأكثر حضورًا. نظر إليه تريستان مطوّلاً، فإذا بالانعكاس يميل برأسه ميلانًا خفيفًا لم يقم به جسد تريستان الحقيقي. كان ميلاً صغيرًا، لكنه واضح .كان كافيًا ليجمد الدم في عروقه.

تراجع خطوة إلى الوراء، وكاد يصطدم بسيارة عابرة. ارتفع صوت المنبه، إلا أنه لم يسمعه إلا كصوت بعيد، صوت لا ينتمي لهذا العالم. ظلّ يحدق في الزجاج، لكن

الواجهة الآن تعكس سيارة تمرّ ولم تعد تعكسه .عاد إلى شقّته بخطوات سريعة، وكأنّ المدينة أصبحت فخًا يريد الهروب منه .دخل وأغلق الباب خلفه بإحكام، وشعر أن جدران الشقة ضاقت أكثر من قبل، وأنّ المرآة التي كانت مجرّد قطعة أثاث عادية صارت الآن تهديدًا صامتًا يتربص به .وقف بعيدًا عنها، لكنه لم يستطع مقاومة رغبة قوية في التأكد. اقترب ببطء، ووقف أمامها مرة أخرى، محدقًا في عيني انعكاسه .بدا كل شيء طبيعيًا، حتى الوهلة التي يتأكد فيها القلب أنّ الكارثة انتهت.

لكنّ الهدوء لم يدم .ففي لحظة خاطفة، رأى على خدّ انعكاسه دمعة تسقط ببطء، تنحدر على الزجاج كأنّها قطرة حزن خرجت من قلبه المكسور. مدّ يده إلى وجهه ليتأكد، فوجد بشرته جافة تمامًا. لم يكن هو من يبكي، بل الانعكاس وحده .شعر تريستان بأطرافه تبرد .كانت تلك الدمعة صرخة صامتة، عتابًا لم يُنطق، اعترافًا لا يعرف مصدره .تراجع وهو يكاد يختنق، وسقط جالسًا على الأرض، مسندًا ظهره إلى الجدار، يراقب المرآة وكأنها كائن حيّ يترقب لحظة الانقضاض .مرّت دقائق طويلة وهو يحدق فيها، ثم قال بصوت متهدّج، لا يعرف إن كان يخاطب المرآة أم يخاطب ذلك الشيء الذي يسكن داخله" :لماذا الآن؟ لماذا اخترت هذه اللحظة بالذات لتعود؟ "ولأول مرة منذ سنوات، لم يأتِ الصمت كعادة قديمة، بل جاء الصوت من مكانٍ لا يمكن تحديده، صوت يشبه صدى صدره حين ينكسر، يقول بوضوح لا يُحتمل" :لأن ما دفنته... بدأ يخرج من تحت التراب".

الفصل الثالث حين يبدأ الماضي بطرق الباب

لم يكن الليل قد حلّ بعد، لكنّ شقّة تريستان غَرقت في ظلمة أعمق من ظلمة المساء نفسه، وكأنّ الجدران التي تحتضن المكان امتصّت كل بصيص ضوء تسلّل من الخارج، تاركة الغرفة في عزلة ثقيلة أشبه بقبوٍ دُفن فيه الزمن ولم يعد يريد أن يفتح أبوابه. بقي تريستان جالسًا على الأرض فترة طويلة، لا يحرّك ساكنًا، مكتفيًا بالاستماع إلى دقات قلبه المتسارعة التي بدا وكأنها تحاول أن تذكّره بأنّ الحياة ما

تزال جارية، رغم أنّ شيئًا داخله كان موقنًا بأنّ حياته لم تعد تنتمي إلى هذا الإيقاع الكوني المعتاد .وبينما كان يحاول أن يقنع نفسه بأنّ ما رآه على المرآة كان هلوسة عابرة، بدأت الذكريات القديمة تخرج من أعماق عقله بصوت خافت، كما لو أن الذاكرة نفسها حاولت أن تتسلل إليه دون أن تفضح غايتها، محركةً داخله تلك الطبقات المهملة من الألم التي تعفّنت ببطء على مرّ السنين. لم يكن بحاجة إلى إغماض عينيه ليعود إلى تلك الليلة، الليلة التي بدأ منها كل شيء، الليلة التي علق بها ذنبه كما يعلق الطين بثوب لا يُغسل مهما تكرر الغسل .كان يرى الشاب من جديد... ذلك الشاب الذي لم يكن يعرف اسمه، ولم يعرف من أين جاء أو كيف انتهت به الحياة على حافة الموت في ذلك الليل البعيد. يتذكر تريستان اللحظة التي وجده فيها مستلقيًا على الرصيف، جسده النحيل يرتجف كمن يهرب من نهاية محتومة، وعيناه مغلقتان بشدة كأنهما تخضعان لقوة أكبر منهما. يتذكر كيف حمله، وكيف ركض به بين الشوارع الضيقة، وكيف شعر لوهلة أنه لم يُنقِذ شخصًا غريبًا بقدر ما كان ينقذ نفسه من شعور قديم بالفشل، شعورٍ لازمه طوال حياته .كانت تلك الليلة بالنسبة له خطوة نحو شيء يشبه الخلاص، أو هكذا ظنّ .لكنّ الخلاص كان وهماً .وكان الوهم بداية اللعنة.

عاد تريستان إلى وعيه حين شعر ببرودة الأرض تنفذ من خلال ملابسه إلى جسده، فنهض ببطء واتجه نحو النافذة. فتح الستار قليلًا، ليجد أن المطر ما يزال ينهمر بحدة، وقد امتلأت الشوارع بلمعان يشبه الزجاج المحترق. كان الناس يمرون بجانب بعضهم دون أن يلتفتوا، كأنّ لكل واحد منهم وزنه الخاص من الهموم التي تمنعه من رؤية الآخرين. كان هذا المشهد مألوفًا بالنسبة لتريستان، لكنه في تلك اللحظة شعر بأنّ المدينة بأكملها تشاركه خوفه، أو ربما كانت مرآة ضخمة تعكس داخله في كل شارع وكل نافذة وكل ظلّ عابر .ابتعد عن النافذة، وعاد ينظر إلى المرآة، لكنّ انعكاسه كان ساكنًا هذه المرة، هادئًا لدرجة تثير الريبة، كأنّ الكيان الذي تحرك من خلف الزجاج قبل قليل اختبأ الآن في ثنايا الصورة، مترقبًا اللحظة المناسبة ليظهر من جديد. شعر تريستان بأنّ أنفاسه تصبح أثقل، وأنّ الهواء داخل الغرفة يضيق تدريجيًا، فقرر الخروج، ليس هربًا من المرآة، بل هربًا من ذاته التي صارت تشبه غرفة مغلقة بلا نوافذ .حين خرج إلى الشارع، كانت لندن تزداد قتامة، والضباب يلتف حول مصابيح الطرقات مثل أشباح بيضاء تراقب كل من يعبر. سار بخطوات غير ثابتة، لا يعرف وجهته، لكن جسده كان يقوده إلى المقهى دون

تفكير، وكأنّ المكان أصبح جزءًا من ذاكرته العضلية، مثل حركة النفس أو نبضة القلب. كان يحتاج إلى أحد يفهم صمته قبل كلامه، وكان أندرو الشخص الوحيد الذي يمتلك هذه القدرة، القدرة على رؤية ما وراء الكلمات التي لا تُقال .دخل المقهى، فشعر بدفء خفيف يخترق جلده المبتل، ورأى أندرو يقف في مكانه المعتاد، ينظف إحدى الطاولات ببطء، كما لو أنه يقوم بطقس يومي لا يتغير. وعندما لمح تريستان، توقف عن الحركة، وتغيّر وجهه بنظرة فهِم منها تريستان أنه بدا عليه شيء مختلف، شيء أثقل من التعب.

قال أندرو بصوت هادئ، دون أن يسأله أي سؤال" :جلوسك على الأرض وحدك لا يليق، ولا أظن أن الليل وحده كافٍ ليجبرك على الخروج بهذا الشكل ".جلس تريستان بصمت، ولم يطلب شيئًا .وضع أندرو فنجان القهوة أمامه دون أن يسأله عن اختياره، فقد كان يعرف ماذا يشرب تريستان، ويعرف أكثر أنه يشربه لا ليستمتع بطعمه، بل ليمنح نفسه عذرًا للبقاء في مكان يسمح له بالتنفس .قال تريستان أخيرًا، بصوت أكثر خشونة مما اعتاد" :بدأ الماضي يعود... ليس كذكرى... بل ككائن حيّ".

لم يتفاجأ أندرو، بل جلس أمامه كما لو أنه يدرك المعنى الكامل للجملة .مسح يده على الطاولة، ثم قال" :الأشياء التي ندفنها لا تموت، بل تتحول. وأحيانًا، حين تتراكم بما يكفي، تعود إلينا بشكل لا نتوقعه، شكل يخيفنا لأنه يعكس حقيقتنا كما هي، لا كما أردنا لها أن تكون ".أطرق تريستان رأسه قليلًا، ثم رفعه فجأة وقال : "أندرو... ما رأيك في أن يكون للذنب حياة؟ أقصد... أن يكون شيئًا له جسد، له صوت، له طريقة في الظهور ".أجاب أندرو بلا تردد" :إذا عاش الذنب طويلًا بما يكفي داخل عقل صاحبه... فإنه يبدأ بالبحث عن باب للخروج. والمرآة، يا صديقي، كانت أول باب وجده ".ارتعشت يد تريستان .كان يعلم أن أندرو لا يقول كلمات شاعرية لتهدئة روحه، بل كان يتحدث كما لو أنه يصف مرضًا يعرف أعراضه جيدًا .ثم سأل أندرو سؤالًا جعله يشعر بشيء يشبه الانهيار من الداخل : "تريستان... هل هذا عن الشاب؟"

تجمد الهواء حولهما، وكأنّ الزمن توقف ليصغي هو أيضًا .لم يجب تريستان مباشرة، بل نظر إلى المقهى، إلى الناس الجالسين، إلى أصوات الأكواب، إلى رائحة القهوة، ثم عاد إلى عيني أندرو وقال ببطء يشبه الاعتراف" :لقد أنقذته... ثم عاد

بعد سنتين ليقتل كل من أحببتهم. وأنا... رأيت كل شيء.

لم ينطق أندرو بحرف واحد .ولم يكن بحاجة لذلك.

حين غادر المقهى بعد ساعات، كان الليل قد استقر فوق المدينة مثل غطاء ثقيل، وكانت الشوارع شبه خالية إلا من بضعة ظلال تتحرك بهدوء. لكنّ شيئًا غريبًا كان يحيط بتريستان، شعورٌ لا يستطيع تفسيره لكنه يعرف أنه ليس مجرد خوف، بل كأنّ شخصًا ما يسير خلفه، يراقب خطواته، يقترب ببطء شديد، إلى درجة أنه يكاد يسمع الصوت الذي تصنعه أقدام غير مرئية فوق الرصيف المبتل .ولمّا وصل إلى باب شقته، شعر بأن قلبه يتوقف للحظة .لقد كان الباب مفتوحًا .كان متأكدًا أنه أغلقه بإحكام قبل أن يغادر .دخل ببطء، وتفحص المكان بعينيه، لكن الغرفة كانت كما تركها... باستثناء شيء واحد .المرآة .لم تعد في مكانها .كانت الآن موضوعة في وسط الغرفة، كأن أحدًا سحبها من الجدار ووضعها أمامه عمدًا .اقترب منها وهو يشعر أن كل خطوة تقوده نحو الحقيقة التي كان يهرب منها منذ سنوات .وحين وقف أمامها، لم يرَ انعكاسه .بل رأى الشاب .الشاب الذي أنقذه .الشاب الذي قتل عائلته .كان واقفًا داخل المرآة، يحدّق إليه بعيون خالية من الحياة، وخالية أكثر من الندم .ثم رفع الشاب يده ...وأشار إليه .ولم يتحرك تريستان .كان كمن استيقظ داخل كابوس يعلم يقينًا أنه ليس نائمًا.

الفصل الرابع حين تكفّ المرآة عن كونها زجاجً

لم يتحرك تريستان حين رأى الشاب داخل المرآة، ليس لأن الخوف قيّده فحسب، بل لأنّ شيئًا داخله أحسّ بأنّ ما يراه ليس مجرد صورة، بل حقيقة أكثر رسوخًا من أيّ واقع عاشه خارج تلك اللحظة؛ حقيقة تعود من أعماق الزمن لا لتذكره بما حدث فقط، بل لتفرض عليه مواجهة طالما تفاداها، كما يتفادى الجسدُ لمس الحديد المحمى. ظل واقفًا بلا حراك، متسمرًا أمام المرآة التي لم تعد مرآة، بل بوابة صامتة تفتح على ماضٍ يرفض أن يموت، ماضٍ يتخذ شكل الشاب الذي ظنّ حين أنقذه أنه أنقذ قطعة من إنسانيته، فإذا به ينقذ بذرة شرّ نمت في الظلّ حتى

التهمت حياته كلّها .كان الشاب داخل الزجاج يحدّق إليه بعينين لا تحملان سوى البرودة المطلقة، تلك البرودة التي تسبق الفعل الدامي، أو تتلوه، والتي لا يعرفها إلا من جرب طعم الذنب الحقيقي؛ الذنب الذي لا يتساقط مع الدموع ولا ينحلّ مع الزمن، بل يلتصق بالروح كوشم غامق لا يمكن محوه. رفع الشاب يده ببطء، وكأنه يشير إليه لا ليهدده، بل ليخبره بأنّ وقت الاستدعاء قد حان، وأنّ السنين التي حاول فيها تريستان أن يخدع نفسه بالأعذار وبالنسيان كانت مجرّد هدنة قصيرة، هدنة انتهت الآن .تنفّس تريستان بعمق شديد، محاولًا أن يستعيد شيئًا من سيطرته على نفسه، ومع ذلك لم يستطع كبح الارتجاف الذي اجتاح يديه، فقد كان يرى بعينيه ما كان يهرب منه بعقله، ويرى في تلك الملامح الميتة كل الإجابات التي لم يشأ التطرق إليها منذ تلك الليلة المشؤومة. حاول أن يقول شيئًا، أي شيء، كلمة واحدة تكسر جدار الصمت المخيف، لكن صوته كان محبوسًا في حلقه كصرخة خائفة تخشى أن تتحول إلى حقيقية إذا خرجت .أخيرًا، تجرأ على الاقتراب خطوة واحدة، خطوة كادت الأرض تحتها أن تنزلق من ثقلها، وقال بصوتٍ ضعيف لكنه كامل، واضح المعنى، رغم تهشمه" :لماذا عدت؟"

لم يكن ينتظر إجابة صوتية، لأنّ الشاب داخل المرآة ظلّ صامتًا كقبر، لكنّ نظرة عينيه سقطت على قلب تريستان كسكين طويلة، وكأنّها تقول له، بوضوح أشد من الكلام، إنّ العودة لم تكن خيارًا، بل كانت حتمية تراكمت ملامحها عبر السنين التي ضيعها تريستان محاولًا أن يدفن الحقيقة في أعماقه. شعر لوهلة أن الغرفة أصبحت أضيق من قفص، وأنّ الهواء صار ثقيلًا كالدخان، وأنّ المرآة تكبر أمامه، تكبُر وتتسع وكأنها تبتلع المسافة بينه وبين ماضيه بالكامل .لكن اللحظة لم تدم، إذ بدأت الصورة تهتز ببطء، كأنّ يدًا غير مرئية تحرّك المياه في بئر عميقة. كان الشاب ينحلّ تدريجيًا داخل الزجاج، ومعه تتشوه ملامحه، حتى صارت أشبه بظلّ طويل ممتد، ثم اختفى كل شيء فجأة، تاركًا المرآة سوداء بالكامل، سوداء إلى درجة لا تعكس شيئًا، حتى الضوء الذي مرّ من خلف تريستان ابتلعته العتمة داخل الزجاج، وكأن المرآة صارت حفرة لا قرار لها .شعر تريستان برغبة ملحّة في الهروب من الشقة، بل من المدينة كلها، رغبة تشبه تلك التي تصيب من يشعر بأن الجدران ستطبق عليه في أية لحظة، ولكنه في الوقت نفسه شعر بأنّ قدميه غرستا في الأرض، كأنّهما جذران تمنعانه من الحركة، وكأنّ الماضي نفسه أمسك بهما. في تلك اللحظة، أدرك أن الهروب لم يعد ممكنًا، فالمواجهة لم تعد خيارًا، بل أصبحت

الصيغة الوحيدة للنجاة، أو ربما الصيغة الوحيدة للسقوط الكامل، لكنه لم يعد يفرّق بين النجاة والسقوط .جلس على الأريكة، واضعًا يديه فوق وجهه، محاولًا إيقاف سيل الذكريات الذي بدأ يتدفق بلا رحمة. رأى نفسه في تلك الليلة مرة أخرى، يركض في الشارع وهو يحمل الشاب بين يديه، يشعر بثقل الجسد الضعيف الذي فقد وعيه، وبحرارة الدم التي التصقت بثيابه، ويتذكر الصوت المبحوح الذي خرج من فمه حين وصل إلى المستشفى وهو يصرخ طلبًا للمساعدة، وكأنه يصرخ لإنقاذ جزء من ذاته كان يظنه قابلاً للعلاج .لكنّ الذاكرة لم تتوقف عند اللحظة التي أنقذه فيها، بل تجاوزتها بسرعة، لتصل إلى اللحظة التي رأى فيها الشاب مجددًا، بعد سنتين كاملتين، يقف داخل منزله، يحمل سكينًا، ووجهه لا يشبه وجه الشاب الذي أنقذه، بل يشبه وجه الموت نفسه. يتذكر كيف واكب المشهد بصمت مطلق، وكأنه كان يشاهد فيلمًا مكثفًا من الخارج، دون قدرة على الحركة، دون قدرة حتى على الصراخ، وكأنّ الزمن قرر أن يعاقبه بالشّلل في اللحظة التي كان فيها كل شيء يحتاج إلى إنقاذ جديد، لكنه لم يستطع هذه المرة أن يمد يده .ظلّ يعصر رأسه بين يديه، وكأنّ الألم سيخفّ إذا شدّ على جمجمته، لكنه وجد أن الذنب أعمق من أن يلمس بالعظام، فهو يعيش في طبقات الروح، لا في الجلد ولا في الذاكرة. وحين بدأ أنفاسه تهدأ تدريجيًا، سمع صوتًا خافتًا، صوتًا لم يأت من الخارج، بل خرج من داخل المرآة التي استعادت شيئًا من بريقها .كان الصوت أشبه بنَفَسٍ ثقيل، نفسٍ واحد طويل، يعبر من الزجاج إلى الهواء، فرفع رأسه ببطء، ونظر إلى المرآة .لم يرَ الشاب هذه المرة .بل رأى نفسه .لكنّ نفسه التي رأى ليست انعكاسًا، بل نسخة أخرى، نسخة أضعف، أكثر شحوبًا، أكثر حزنًا، نسخة تحمل في عينيها كل ما حاول إخفاءه لسنوات طويلة .وكانت تلك النسخة تتحرك قبل أن يتحرك هو، كما لو أنها هي الأصل، وهو مجرد ظلّ يتأخر دائمًا .رفع تريستان يده ليجسّ صدغه، فرفعت النسخة يدها بطريقة مختلفة قليلًا .وعندما فتح فمه، سبقت النسخة كلماتُه، وقالت بصوت يشبه صوته لكنّه أعمق، كأنه خرج من حفرة بعيدة الدهاليز" :لم يعد الماضي هو ما يكسرنا... بل نحن الذين نكسره كي يظلّ معنا ".وتراجع تريستان خطوة كاملة إلى الوراء، مؤمنًا للمرة الأولى بأنه لا يواجه ذكرى ولا شبحًا ولا هلاوس، بل يواجه نفسه التي نشأت من الذنب، والتي نضجت في العتمة، والتي لم تعد ترغب في البقاء خلف الزجاج .بل ترغب في

الخروج.

الفصل الخامس حين يبدأ الداخل بالخروج

لم يستطع تريستان أن يشيح بنظره عن المرآة، فقد شعر في تلك اللحظة بأنّ شيئًا ما يتجاوز قدرته على الفهم قد بدأ يتشكل داخل الزجاج، شيء لا ينتمي إلى قوانين المنطق، ولا يخضع لحدود الوهم، بل يقف على الحافة بين الذهن وما وراء الذهن؛ ذلك المكان الذي يُصبح فيه الألم كائنًا له ملامح، وله صوت، وله إصرار على أن يتجسد مهما حاول صاحبه أن يُنكره. ظلّ واقفًا أمام المرآة، كمن يواجه مصيره لا ليثبته، بل ليتأكد أنه كان يتشكل في الظلام منذ زمن بعيد .النسخة التي ظهرت له داخل المرآة لم تكن مجرد انعكاس شاحب، ولم تكن أيضًا صورة مجازية تعكس حالته النفسية، بل كانت أقرب إلى روح مكسورة انفصلت عنه ذات ليلة، وبقيت تتغذى من ذنبه عامًا بعد عام، حتى أصبحت كيانًا قائمًا بذاته، كيانًا يرى ما لا يراه هو، ويشعر بما لم يعد قادرًا على الشعور به، ويتنفس عبر الشقوق التي تنفتح في داخله كلما حاول أن يهرب من الحقيقة. كانت هذه النسخة تقف داخل الزجاج بخطوات ثابتة، وعلى وجهها تلك النظرة التي لا يمكن تفسيرها، نظرة تجمع بين الشفقة والاتهام، بين اللوم والحزن، وبين التهديد والرغبة في الاقتراب .وبينما كان تريستان يراقبها بعينين ترتجفان، تحرك الكيان داخل المرآة ببطء، كما لو أنه يتدرّب على المشي من جديد، وبدأت ملامحه تتضح أكثر، حتى صار شكله مطابقًا لشكل تريستان في كل تفاصيله، لكنّ شيئًا واحدًا فقط كان مختلفًا: العينان. كانت عينا النسخة تحملان سوادًا كثيفًا، سوادًا لا يشبه سواد الليل ولا سواد الظلال، بل ذلك السواد الذي يتكون من الذنب نفسه، حين يتخثر ويتراكم ويتحول من شعور إلى جوهر، ومن وجع إلى حضور، ومن وصمة إلى حياة .وبينما هو يتراجع خطوة بعد أخرى، سمع النسخة تتكلم بصوت يشبه صوته لدرجة مؤلمة، لكنه كان أبطأ وأثقل، كأنه خرج من عمق بئر" :لقد انتظرتُ طويلاً، يا تريستان. انتظرتُ اللحظة التي تُنزل فيها دفاعاتك بنفسك، اللحظة التي تعترف فيها، ولو في داخلك، بأنك

لست ضحية ما حدث... بل شريك فيه ".ارتعش جسده بالكامل، فهو لم يكن يومًا مستعدًا لسماع ما كان يهمس به ضميره في الليل وقد صار الآن يتحدث بصوت عالٍ يتردد صداه في الغرفة. شعر بأنّ الهواء صار أثقل، وكأنّ الكلمات كانت جزيئات من معدن حاد، تزداد وزنًا كلما حاول أن يبتعد عنها. حاول أن يرد، أن يقول أي شيء يدفع عنه هذا الاتهام، لكنه وقف عاجزًا، لأنّ الجزء الأعظم من الحقيقة كان يقف في صفّ خصمه داخل المرآة .اقتربت النسخة من الزجاج خطوة أخرى، ومع كل خطوة، شعرت الغرفة وكأنها تضيق، وكأنّ الجدران تلمّ نفسها حولهما، وكأنّ الزمن يطوي اللحظات ليضعهما في دائرة واحدة لا مخرج منها. قالت النسخة بصوت خافت لكنه واضح، كأنه يفتح بابًا نحو ذاكرة كان تريستان يحاول أن يغلقها بكل ما يملك" :أتذكر تلك الليلة، أليس كذلك؟ أتذكر جيدًا أنّك لم تُنقذ الشاب بدافع الرحمة، بل بدافع الهروب من شعورك بالعجز. أردت أن تشعر، ولو لوهلة، أنك قادر على فعل شيء ذي قيمة. أردت أن تمحو شيئًا ما من داخلك، لا أن تُنقذ نفسه ".شعر تريستان بأنّ كل كلمة ترتطم بضلوعه وكأنها ضربة مطرقة .أراد أن ينكر، لكنه لم يستطع .أراد أن يصرخ، لكنه لم يملك الشجاعة .أراد أن يقول إنّ نواياه كانت نقية، لكنّ قلبه ارتجف حين حاول أن ينطق بذلك .أكملت النسخة كلامها، دون أن تمنحه مهربًا" :وحين رأيته في منزلك، لم تكن مصدومًا فقط من جريمته... بل كنت مصدومًا من نفسك. لأنّك أدركت، في تلك اللحظة، أنّك لم تُنقذ إنسانًا، بل فتحت الباب لشيء كان عليك ألا تقترب منه، وأنك دفعتَ جزءًا من حياتك ثمنًا لاندفاع لم يكن نابعًا من رحمة، بل من رغبة في خلاص رخيص ". أحسّ تريستان أن الأرض تتحرك تحت قدميه، وأن الغرفة تدور من حوله، وكأنّ الحقيقة ليست مجرد فكرة، بل ضربة تهزّ توازنه كلّه. شعر بأنه على وشك السقوط، فجلس بسرعة على الأريكة، ممسكًا رأسه بكلتا يديه. لم يكن الألم في جسده، بل في ذلك الجزء الضيق من الروح الذي لم يكن مستعدًا للتعرّي بهذا الشكل .اقتربت النسخة أكثر، حتى أصبحت قريبة من سطح الزجاج، كأنّها تبحث عن شرخ صغير تعبر منه. لم يعد وجهها مجرد صورة، بل أصبح حيًا بطريقة مزعجة، كأنّ النفس التي رفضها تريستان لسنوات طويلة عادت الآن لتطالب بحقّها. قالت النسخة بصوت هادئ لكنه ثابت" :أنا لست شبحًا، ولا ذكرى، ولا خدعة بصرية. أنا أنت حين توقفتَ عن أن تكون أنت. أنا الجزء الذي تركته ليموت، لكنه لم يمت. وأنا هنا الآن... ليس لأجل الماضي... بل لأجل ما تبقى

منك ".ثم حدث أمر لم يكن يتوقعه تريستان على الإطلاق .اهتزّ سطح المرآة، كما لو أن شيئًا في داخلها بدأ يتحرك باتجاه الخارج، وبدأت خطوط رفيعة تظهر على زجاجها، خطوط تشبه الشقوق الدقيقة التي تسبق الانكسار، لكنها لم تكن تتجه نحو الخارج، بل نحو الداخل، وكأنّ المرآة نفسها كانت تُفتح من الداخل إلى الداخل .كانت النسخة ترفع يدها ببطء، يدًا ليست خيالًا، ولا وهماً، بل يدًا تكاد تخرج من سطح الزجاج، يدًا تبدو كأنها تستعد لعبور الحدّ الأخير بين الداخل والخارج .وفي تلك اللحظة، لم يعد الخوف هو ما يسيطر على تريستان، بل شعور غريب بالاستسلام، استسلام ليس للهزيمة، بل لضرورة المواجهة، لأنّ الشبح الذي تهرب منه لا يتوقف إلا إذا نظرت في عينيه .وللمرة الأولى منذ سنوات، قال جملة كاملة بصوت واضح تمامًا" :إذا خرجت... فماذا ستفعل بي؟ "ابتسمت النسخة ابتسامة بطيئة، ابتسامة لا تحمل أي دفء، لكنها لم تحمل تهديدًا صريحًا، بل شيئًا أخطر من التهديد" :لن أفعل شيئًا... سوى أن أُريك من تكون".

الفصل السادس حين يخرج الظل إلى الضوء

لم يكن تريستان يعلم أن لحظة خروجه من ذاته ستكون أعظم لحظة عاشها وأكثرها تهشيمًا لحدوده العقلية، فقد وجد نفسه واقفًا أمام المرآة وهو يشعر بأنّ المسافة بينه وبين انعكاسه أصبحت أقصر من أن تُقاس، وأنّ الفاصل الزجاجي الذي كان يحميه بدأ يفقد معناه، كما لو أنّ الحقيقة التي كان يخشاها قررت أن تأتيه دون وساطة ودون انتظار .في اللحظة التي رفعت فيها النسخة يدها ووضعتها على سطح المرآة، أحسّ تريستان بأنّ الهواء في الغرفة تغيّر، وكأنه أصبح محمّلًا بشيء يشبه الذنب حين يتحول إلى مادة، شيء له وزن، وله شكل، وله رائحة لا تشبه شيئًا في العالم. كانت يد النسخة تتحرك ببطء، ولكن بثبات يبعث على الرعب، حتى لامست الزجاج بسطح يشبه الجلد، لا الضوء ولا الظل. وفي اللحظة التي لامس فيها الإصبع سطح المرآة، انكسر الصمت بصوت خافت يشبه الطقطقة الأولى قبل تحطم باب سجن .تراجع تريستان خطوة، لكن النسخة لم

تتوقف. بل اخترقت المرآة كما لو أنها كانت جسدًا من الماء، خرجت منها دون أن يترك الزجاج أي أثر، لا شقوق، لا دم، لا انعكاس. كأنّ المرآة لم تكن حاجزًا بل بوابة، وكأنّ الداخل كان ينتظر أن يخرج منذ سنوات طويلة دون أن يجد فتحة مناسبة، إلى أن فتحها تريستان بنفسه حين انهار دفاعه الأخير .خرجت النسخة كاملة، واقفة على الأرض في مواجهة تريستان .كانت تحمل كل ملامحه، كل خطوط وجهه، كل انكساراته، لكنها كانت أكثر ثباتًا، أكثر حضورًا، وكأنّ الألم الذي قتله من الداخل، منح هذه النسخة حياة كاملة من الخارج .لم يعد الأمر مجرد هلوسة، لم يعد شكلاً من أشكال الإرهاق أو الانهيار، لم يعد مجرد انعكاس نفسي، بل صار حقيقة مطلقة، حقيقة لا يستطيع أحد إنكارها، حتى لو أنكرها تريستان نفسه .نظر إليه الكيان بعينين سوداويين، عينين تحملان تاريخًا كاملًا من الذنب والخوف والإنكار، وقال بصوت يشبه صوته، لكنّه أكثر عمقًا، وأكثر بطئًا، كما لو أنّ كل كلمة تحتاج أن تُولد من رحم جرح" :الآن... لنبدأ الحديث الحقيقي ".شعر تريستان بأن ساقيه على وشك الانهيار، لكنه قاوم، لأنه فهم أن الهروب لم يعد خيارًا، وأن كل ما عاشه خلال السنوات الماضية كان يمهد للّحظة التي سيقف فيها وجهًا لوجه مع ذاته، ليس تلك الذات التي يواجهها الناس، بل تلك التي أخفاها عن نفسه .قال تريستان بصوت مرتجف" :من أنت... فعلاً؟ "اقتربت النسخة خطوة واحدة فقط، لكنّ تلك الخطوة بدت كأنها تختصر عمرين .ثم قال بهدوء مخيف : "أنا أنت حين توقفتَ عن الكذب ".أغلق تريستان عينيه للحظة، كما لو أنّه يواجه ضوءًا قويًا، ثم فتحهما ببطء، وقال" :لم أكذب... كنتُ خائفًا فقط ".ضحكت النسخة ضحكة خفيفة، لكنها لم تكن ضحكة استهزاء أو سخرية، بل ضحكة إنسان يفهم الحقيقة جيدًا لكنه يرى الآخر عاجزًا عن الاعتراف بها. وقال : "الخوف... هو أكمل أنواع الكذب. لأنّه يصنع لك حكاية تستطيع أن تنام عليها، حتى لو كنت تعلم أن نهايتها مزيفة ".جلس تريستان على حافة الأريكة، ووضع يديه على ركبتيه، وبدأ يشعر أنّ الغرفة كلها تضيق حوله، لا بسبب وجود الكيان أمامه، بل لأن الكلمات بدأت تتجمع داخل صدره كأنها حجارة. ثم قال" :هل جئتَ لتلومني؟ "هزّ الكيان رأسه نفيًا، وقال" :لا. اللوم شيء تفعله الأرواح الصغيرة. أنا جئتُ لأريك الحقيقة التي تهرب منها. جئتُ لأريك أنّك لم تكن ضحية الشاب الذي قتل عائلتك... بل شريكًا في سردية كاملة، سردية بدأت قبل جريمته بسنوات ".رفع تريستان رأسه بحدة، وقال" :أنا لم أقتله! ولم أطلب منه أن يقتل

أحدًا "!اقتربت النسخة لدرجة لم يعد بينهما إلا خطوة، ثم قال" :أعلم ذلك. لكنّك نسيت أن الأخطاء الأخلاقية ليست في الأفعال التي نرتكبها فقط، بل في الأفعال التي نتركها تُرتكب لأنّنا خائفون من مواجهة دواخلنا ".تجمد تريستان .شعر بأنّ قلبه توقف قبل أن يعود للنبض بقوة .ثم قال بتردد" :ما الذي تعنيه؟ "أجاب الكيان بكلمات أشبه بسكين بطيء" :حين أنقذتَ ذاك الشاب... كنت تهرب من نفسك. لم تر فيه إنسانًا، بل فرصة. فرصة لتشعر أنك ذو قيمة. كنت تريد أن تثبت لنفسك أنك قادر على الإصلاح. لكنّ الإصلاح الذي يُولد من جرح ملوث... ينتج جرحًا أكبر ".شعر تريستان بشيء حارق يصعد في صدره .كان يريد أن يصرخ، لكنّ صوته اختنق .بعد لحظات طويلة قال" :أنا لم أعرف أنه سيقتل ".أجاب الكيان" :ولا أردت أن تعرف. لأنّك لم تنظر إليه بعمق. لم تسأل من هو. ولم تلاحظ الظلام الذي كان يسكن عينيه حين وجدته. كنتَ تريد بطولة سهلة، تهرب بها من مواجهة فشلك الشخصي ".جلس تريستان على الأرض .وضع يديه على رأسه .لم يعد قادرًا على تحمل ثقل الحقيقة .لكن النسخة انحنت نحوه وقال : "تريستان... الذنب ليس في أنك أنقذته. الذنب في أنك لم تنقذ نفسك. الذنب في أنك تركتَ جرحًا مفتوحًا في داخلك، جرحًا ملأته بالكتابة وبالأحلام وبالناس... دون أن تنظفه ".رفع تريستان رأسه ببطء، وعيناه تلمعان بشيء يشبه الإدراك، وقال : "وما الذي تريد مني أن أفعله الآن؟ "ابتسمت النسخة ابتسامة لا تشبه أي ابتسامة رآها في حياته .كانت ابتسامة إنسان يعرف الطريق لكنه يترك الآخر ليكتشفه بنفسه .ثم قال" :أريدك أن تنظر إلى داخلك... حتى تفهم أنّ جذورك لم تكن بريئة يومًا. وأنّك في كل حياتك... لم تهرب من الآخرين... بل من ذاتك ".سكت للحظة، ثم أكمل" :وإذا أردت أن تعود للحياة... عليك أن تتحمل حقيقة أنّ الجزء المظلم منك لن يموت. لن يختفي. لن يتبخر. سيبقى معك. سيجلس بجانبك. سيشاركك جسدك. وسيذكّرك دائمًا أنّ الإنسان ليس كائنًا نقيًا، بل كائنًا يحمل الضوء والظلمة معًا ".شعر تريستان بشيء غريب، شيء يشبه الراحة لكنه يوجع، يشبه الشفاء لكنه يحرق .وقال" :إذن... لا مفر؟ "أجاب الكيان" :الفرار... هو الذي أوصلك إلى هنا. أما القبول... فهو الذي سيخرجك ".ثم حدث ما لم يكن يتوقعه تريستان . مدت النسخة يدها نحوه، لكن ليس لتدميره، ولا لسحبه، بل بطريقة تشبه المصافحة .مصافحة صامتة لكنها تحمل معنى أكبر من الكلمات .نظر تريستان إلى اليد، ثم إلى وجه النسخة .وشعر أنه يقف على الحافة الأخيرة في حياته .مدّ يده،

ولمس يد النسخة .وفي اللحظة التي التقت فيها اليدان، اختفى الكيان فجأة، ليس كاختفاء شبح، بل كعودة شيء إلى مكانه الطبيعي، كأن الروح المكسورة عادت إلى الجسد، وكأن الظلام الذي خرج من داخله عاد ليستقر فيه، لا ليقتله... بل ليكتمل به .شعر تريستان بأنّ الهواء أصبح أخف، وبأنّ الغرفة لم تعد تهتز، وبأنّ صدى الماضي بدأ يخف... لكنه لم يختف .ثم قال بصوت هادئ جدًا" :أنا لست بريئًا... لكنني لست شريرًا أيضًا ".جلس على الأرض، وسمح لنفسه – لأول مرة – أن يبكي بلا خوف .بكى لأنّه عرف الحقيقة .وبكى لأنه لم يعد أسيرًا لها .وحين نهض، نظر إلى المرآة .ورأى انعكاسه... كاملًا .لا ظل .لا شبح .لا نسخة .فهم في تلك اللحظة أن الإنسان لا يُشفى من ظله، بل يتعلم أن يمشي معه.

في نهاية كل رحلة إنسانية، لا يخرج المرء منتصرًا أو مهزومًا، بل يخرج أكثر قدرة على رؤية ذاته كما هي، متصدعة، مشروخة، محمّلة بأثر ما فعل وما لم يفعل، وما كان يتمنى لو فعله. إنّ الإنسان كائن يولد ناقصًا، ويظلّ يحاول – بلا جدوى كاملة – أن يرمم شرخ وجوده، لكنه كلما حاول، اكتشف أنّ الكمال لم يكن يومًا جزءًا من المعادلة .ليست خطايانا مجرد أفعال ارتكبناها، بل مساحات في داخلنا احتاجت إلى ضوء ولم تجد، فامتلأت بالظلال. ولسنا نتحرر من ذنوبنا حين نعترف بها، بل حين نفهم أنها ليست انفصالًا عن طبيعتنا، بل امتداد لها. إنّ الظل ليس عدوّ الإنسان، بل الجزء الذي يكشف له أنه قادر على السقوط في اللحظة نفسها التي يظن فيها أنه يطير .قد لا يكون الإنسان مسؤولًا عن كل النتائج، لكنه مسؤول عمّا يفعله بقلبه حين تترتب النتائج، وعن الطريقة التي يواجه بها ذاته حين تنهار الأشياء التي بناها. فالذنب ليس محكمة، بل مرآة؛ وليس عقابًا، بل تذكيرًا بأنّ كل قرار أخلاقي يحمل جانبًا معتمًا مهما كان نقيًا. وما من طريق يكتمل من دون أن يمر عبر منطقة مظلمة، تمامًا كما لا يمكن لضوء أن يثبت وجوده دون ظل .والحقيقة الكبرى التي يتعلمها الإنسان متأخرًا، هي أن الهروب من الذات لا يطفئ نار الذنب، بل يتركها تحترق ببطء في الداخل. أما القبول، فهو ليس غفرانًا للخطأ، بل اعترافًا بحدود الطبيعة البشرية، وبتعقيد القلب، وبأنّ الظلام ليس وصمة، بل مادة خام تتشكل منها قوتنا بعد السقوط .لهذا، لا يخرج الإنسان من صراعه مع ذاته بريئًا أو مذنبًا، بل يخرج إنسانًا —إنسانًا يعرف أن الظل لن يفارقه، وأن النور ليس وطنًا ثابتًا، وأن الخلاص ليس في الطهر، بل في الصدق مع الجرح، وفي القدرة على حمله دون أن يتحول إلى سجن.